المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي

أ/كريم الطيب
جامعة بسكرة

الملخص :

شهدت منطقة بسكرة عامة، ومنطقة الزاب الشرقي خاصة تعاقب حضارات متعددة، منها تلك التي تعود للفترة الإسلامية المتمثلة في المواقع الأثرية المحددة في الدراسة حيث ساهمت حضاريا، وبشكل كبير في نمو المنطقة وما جاورها.كما أن الدور الذي لعبه مسجد سيدي عقبة، وكذا مسجد سيدي المبارك والسرايا بخنقة سيدي ناجي. فلقد ساهمت ثقافيا في المنطقة من الناحية العلمية والثقافية والدينية، وحتى الاجتماعية وقد تجاوز ذلك إلى المناطق المجاورة وحتى خارج الوطن.لا شك أن المواقع المخصصة للدراسة السالفة الذكر لها أهمية أثرية، إذ تعد بحق شواهد أثرية هامة، بسبب مقاومتها الظروف الطبيعية القاسية التي تسود المنطقة، والتي تتميز بمناخها الصحراوي، وكذا الظرف التاريخية والتحولات السياسية التي شهدتها المنطقة على مر الفترات التاريخية. كما أن الطابع العمراني و الزخرفي لهذه المواقع، مازالت تحافظ على شكلها رغم مرور زمن طويل على إنشائها.

يهدف البحث إلى دراسة المعالم الأثرية الإسلامية في الزاب الشرقي دراسة أثرية تاريخية.وكنماذج ركزنا في هذه الدراسة على مسجد عقبة بن نافع الفهري في بلدية سيدي عقبة ومسجد سيدي المبارك ومنزل أسرة بن حسين أو ما يعرف بالسرايا في بلدية خنقة سيدي ناجي.

Abstract :

Search summary: Biskra region in General, and especially Eastern Zab region succession multiple civilizations, including those of the Islamic period of archaeological sites identified in the study where Ministers contributed significantly in the growth of the area and its environs. as to the role played by the mosque of Sidi uqba, as well as a mosque Sidi Mubarak and Al Saraya in khangt Sidi Naji. Culturally, the region has contributed to the scientific, cultural, religious, social and even exceeded it to neighboring areas and even outside the home. There is no doubt that the aforementioned study sites of archaeological importance, the archaeological evidence is important, because of harsh natural conditions resistant Prevailing in the region, which is characterized by desert climate, as well as historical circumstance and political transformations in the region over historical periods. The physical nature of these sites, decorative and still maintain their shape long after its creation. Research aims to study Islamic monuments in the East historical archaeological study Zab. as models in this study focused on the mosque of uqba Ben NAFI el Fahri in Sidi uqba mosque Sidi Naji and Hussain's family home or what is known as Al Saraya in the municipality khangt Sidi Naji.

Keywords: Islamic monuments, the mosque of uqba, Sidi Mubarak mosque, East Zab, Al Saraya, the desert, khangt Sidi Naji

المقدمة:

المتفحص لتسلسل المدن التاريخية الجزائرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، يلاحظ كثرتها وتنوعها من حيث الموقع والأهمية، ورغم هذا فإن الدراسات العمرانية والأثرية اقتصرت على مدن دون الأخرى، سواء عن قصد أو غير قصد. ولأن حظيت المناطق الشمالية من الجزائر بالدراسة والوصف من قبل المؤرخين والرحالة والجغرافيين، فقد بقيت منطقة الصحراء رغم شساعتها واحتوائها على مخزون أثري وثقافي كبيرين لم تحظ بشكل كبير من قبل الباحثين والمهتمين بالدراسة والاهتمام. و تعد المساجد من أهم هذه المعالم في المنطقة لما لها من أهمية دينية واجتماعية وعلمية وثقافية. وقد أشار حسين مؤنس إلي أن ذكر المسجد والمسجد الحرام ورد في القرآن الكريم . بلفظها. ثمانية وعشرين مرة، ومن الآيات القرآنية التي تناولت ذلك قوله تعالي في الآية(16) من سورة الأعراف﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾.

مسجد عقبة بن نافع ببلدية سيدي عقبة

1. **ظرفية التأسيس:**

على بعد 18كيلومتر جنوب شرق مدينة بسكرة يقع ضريح سيدي عقبة، وإلى جانبه الجامع الذي يحمل اسمه لحد الآن. والبلدية التي أصبحت مقرونة باسم الفاتح العظيم الذي قاد جيوش الفتح الإسلامي إلى إفريقية والمغرب. ونظرا للدور الذي لعبه في الفتوحات والتاريخ الإسلامي، تطرقت له العديد من المصادر التاريخية وكذا المراجع بإسهاب.

أ – نسبـه:

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الظرب بن الحارث بن فهر، ومن فهر بن مالك تفرقت القبائل. وقال بن أبي الفياض إن عقبة ولد قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة.[1]

بذلك فقد ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، أما فيما يتعلق في صحبته، فوقع اختلاف ولعل طريقة استشهاده وما روي عنه من كرامات وأنه مستجاب الدعوة، جعلت من ضريحه مزارا يحج إليه الناس من كل صوب كبير، منهم من يعتبره صحابي بالمولد، ومنهم من يعتبره تابعي.

يشغل المسجد مسطحا غير منتظم مقاساته(60م×37م). يتكون من بيت صلاة يتوسط المبني، ويحيط به من الجهات الثلاثة: الشمالية، الشرقية، الغربية. ويتقدم الجامع بيت

الوضوء وعدد من الغرف الملحقة به. ندخل إلى الجامع من بابه الرئيسي الموجود بالناحية الجنوبية عرضه 12متر، وينقسم إلى أربعة مداخل صغيرة يفصل بينها ثلاث دعامات، تحمل في أعلاها عقودا نصف دائرية الشكل. بهذا نصف جامع سيدي عقبة ضمن المساجد غير المنتظمة الشكل، فقد كانت المساجد في الفترة الإسلامية المبكرة تنحصر في حدود مربعة أو شبيهة بالمربع، ثم بدأت حدود المسجد تخضع لمقتضيات العمران وتتقيد بالمكان المخصص لها.[2]

أما المسجد بصفته النموذج الأول للعمارة الإسلامية الدينية، الذي نشأ تلقائيا حسب متطلبات فريضة الصلاة.[3]

فالمسجد النبوي في المدينة هو أول مسجد أختط في الإسلام.[4]

وبهذا فإن الشكل العام لجامع سيدي عقبة يشبه مسجد الأقمر بالقاهرة، ومسجد علي بتشين والمسجد الداخلي للقصبة بمدينة الجزائر.[5]

أما الجدران فتتميز بالسمك، حيث يبلغ سمكهم 80سم، ونجد أن مواد البناء المستعملة هي مواد محلية الصنع تتمثل في الطين والحجارة، إضافة إلى تلبيس الجدران من الداخل بمادة الجص على غرار المسجد النبوي بالمدينة [6]، كما يذكر كارل بروكلمان [7]"والواقع أن المسجد الذي يضم رفاته في المنطقة التي تحمل اسمه سيدي عقبة جنوبي بسكرة، هو أقدم أثر في فن العمارة الإسلامية في إفريقية ويعود إلى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بسيطة بدائية". ويضيف قائلا " فكانت المساجد تتألف من فناء، في أحد طرفيه سقيفة على غرار بيت النبي في المدينة، ولكن هذه البساطة لم تلبث أن أصبحت زيا قديما[8].

إلا أن المصادر التاريخية والأثرية تدحض هذه الآراء، فمسجد القيروان الذي اختطه عقبة بن نافع في سنة 50 هجرية. يعد أول أثر ديني إسلامي في المنطقة، وحتى الشواهد الأثرية التي توجد بالمسجد والضريح، فهي لا تعطينا صورة واضحة على تأسيس المسجد. فشاهد القبر الموجود على ضريح عقبة بن نافع يفتقر للسنة التي وضع فيها. أما النقيشة.[9]

التي توجد في إحدى زوايا المسجد فهي والمؤرخة ب128 للهجرة لا تعطينا صورة واضحة على تأسيس المسجد. وحاول جورج مارسي[10]، أن يقارن بين الكتابة الكوفية التي وجدت على الضريح وكتابة وجدت في القيروان في القرن الخامس هجري الموافق لـ الحادي عشر ميلادي. وعلى أساس ذلك يؤرخ لبناء المسجد ويرجح عبد العزيز شهبي[11]، تاريخ بنائه إلى الفترة الممتدة ما بين، القضاء على مملكة الكاهنة سنة 82 هجري الموافق لـ 701 ميلادي

وبين نهاية حكم أسرة الفهريين في إفريقية سنة 140 هجري الموافق لـ 758 ميلادي. وقد تطرقت بعض المراجع التاريخية لهذا المسجد حيث يقول الدكتور حسين مؤنس[12]، لا نزاع في أن هذا المسجد يعتبر أقدم مساجد المغرب بعد مسجد القيروان، فالراجح أنه نشأ أول الأمر بحا أو روضة في الموضع الذي استشهد فيه هذا الصحابي الفاتح العظيم... ولا شك أن المسجد قد تناولته يد الترميم مرة بعد مرة قبل أن يصل إلى شكله الحالي، ولكنه ما زال محتفظا بهيئته البسيطة التي ترجع إلى عصوره الأولى".

تأخذ بيت الصلاة في جامع سيدي عقبة شكلا غير منتظم، مقاساته (23م× 22م) على غرار مسجد سوس بتونس والقرويين بفاس[13]، والمسجد البراني للقصبة بمدينة الجزائر[14]، يحيط به أروقة من الناحية الشرقية والغربية، ويتألف من سبع بلاطات عمودية على جدار المحراب تجتازها سبعة أساكيب موازية له، يبلغ عرض البلاطة الواحدة 2,40م، ولكنها تختلف من حيث الطول، فبلاطة المحراب والثلاثة التي على يسارها يعادل طولها عمق بيت الصلاة،أما البلاطات الثلاث علي يمين المحراب فطولها 12,90م، ويرجع هذا الاختلاف في المقاسات إلى وجود الضريح وقاعة على يمينه.

فيما يخص الاساكيب فهي تختلف من حيث المقاسات إذ يبلغ عرض أسكوب المحراب والثلاثة التي تليه 3,30م، أما طولها فيعادل طول ضلع بيت الصلاة، والأسكوبين الآخرين الموجودين بمؤخرة بيت الصلاة محصورين بين الجدار الشرقي وجدار الضريح يبلغ عرضهما 2,70م، أما طولها فيقدر بـ 9,60م، ويليهما أسكوب أخير محصور بين الجدار الشرقي وجدار المئذنة، ويبلغ عرضه3,90م أما طوله 12,60م. وتنحصر جميع الاساكيب بين ستة صفوف من الأعمدة يحمل كل صف منها بائكة من العقود. يختفي الصحن بجامع سيدي عقبة، حيث تم تعويضه برواق من الناحية الشمالية والشرقية.

الرواق الشمالي:عبارة عن مضلع غير منتظم طوله 25,50م، وعرضه يتراوح ما بين 8,50م و12,50م، ويشتمل على صفين من الدعامات بكل صف ثمانية دعامات وصف ثالث يشتمل على ثلاث دعامات فقط.

الرواق الشرقي: فيبلغ طوله 21, 20م وعرضه يتراوح ما بين 5,90م و6,20م ويشتمل على صف واحد به سبعة دعامات وفتح بمقدمة الرواق من الجهة الجنوبية مدخل عرضه 2م.

لهذا فإن جامع سيدي عقبة يخرج عن نمط المساجد العامة لأن للصحن أهمية كبرى في عمارة المسجد، وكل مساجد شمال إفريقيا أخذت نمط صحونها من مسجد القيروان قبل القرن

الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي وبهذا فهو يصنف ضمن المساجد الصحراوية الخالية من الصحون،حيث حلت محلها أروقة للضرورة المناخية.

- **الملاحظات و الاستخلاصات:**

1. أن المسجد لم يتم بناؤه في الفترة الممتدة من 82 هجري701 ميلادي وبين نهاية حكم أسرة الفهريين في إفريقية سنة 140هجري 758 ميلادي مثلما حدده عبد العزيز الشهبي لعدة معطيات أبرزها:

2. أن الدولة العبيدية (الفاطمية) والمذهب الشيعي كان ضد أي رمز سني، أو بالأحرى أي شيء يذكرهم بالصحابة وأتباعهم، وبما أن عقبة بن نافع كان محسوبا عليهم فهذا سببا لتحقيره وعدم الاهتمام بمكان دفنه.

3.أن الفترة المحددة لم تشهد استقرارا سياسيا في المنطقة، ويذكر حسين مؤنس في هذا الصدد، أن الفترة التي تلت حكم الفاطميين والذي وصفه بـ"العصر القلق المضطرب الذي دام من أوائل القرن الرابع الهجري الموافق العاشر الميلادي، مع ظهور الدولة الفاطمية في المغرب إلى ظهور المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري، أي قرابة القرن ونصف القرن من الفتن والقلاقل والعواصف وقيام الدول وسقوطها، وبناء المدن والعواصم وهدمها.

4.أن المصادر التاريخية كالواقدي وابن عبد الحكم والبكري وابن عذارى وابن خلدون. تجمع على معلومة تاريخية واحدة وهي أن قبر عقبة بن نافع جصص دون التطرق لأي إشارة تدل على وجود بناء حوله.

5.أن الإسلام نهي على بناء المساجد على الأضرحة والقبور بناءا على ما ورد عن النبي صلي الله عليه وسلم، حيث جاء في السنة النبوية "حدثني زهير بن حرب، حدثنا يحي بن سعيد، حدثنا هشام، أخبرني أبي عن عائشة أم حبيبة وأم سلمه ذكرتا كنيسة رينها بالحبشة فيها تصاوير. لرسول الله صلي الله عليه وسلم فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة".

أن المسلمين كانوا يتخذون من مسجد الرسول معلما ودليلا في بناء المساجد، حيث كانت المساجد في أول الأمر بسيطة من حيث أسلوب البناء والزخارف والأثاث وظل هذا المسجد نموذجا احتذاه مشيدو المساجد في الأقطار الإسلامية الأخرى طوال القرون الأربعة الأولي من الهجرة.

ولذلك نرجح أن يكون بناء المسجد قد تم في الفترة الممتدة بين حكم الأغالبة و الزيريين ما بين القرن الثاني والقرن الرابع هجري. هذه الفترة التي شهدت نوعا من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي فبمجيء الأغالبة زادوا وسائل النهضة الاقتصادية تنظيما والثروة ومواردها نماءا، فأقاموا السدود والجسور، وأنشئوا وسائل الري. فنما الإنتاج ودرت المشاريع خيرها، ويكفينا دليلا على الازدهار الذي بلغته إفريقية، ما تعهد به إبراهيم ابن الأغلب لهارون الرشيد وهو بصدد تأسيس دولته فلم يتردد في أن يتعهد للرشيد بدفع خراج سنوي قدره مئة ألف دينار ذهبا.

يمكن استخلاص من خلال دراستنا لمسجد سيدي عقبة وملاحقه مجموعة من النتائج.

☒ أن المسجد كان في بدايته عبارة عن مزار لضريح عقبة بن نافع الفهري، الذي تكونت بالقرب منه قرى وأحياء سكنية احتاجت بمرور الزمن إلى مسجد لإقامة الصلوات الخمس، وشيئا فشيئا أصبح مسجدا جامعا.

☒ أن المسجد ينتمي إلى المساجد الصحراوية التي لا تحتوي على الصحن، نظرا للظروف المناخية السائدة في المنطقة، كالحرارة الشديدة والرياح مثلما توضحه الجداول المناخية المرفقة.

☒ أن المسجد ينتمي للمساجد غير منتظمة في شكلها، مما يدل على بساطته.

☒ لمسجد تع للع ي م عمليا لت مي لإصلاحا ، ه ما جعل الكثير من المعالم الأثرية تختفي منه.

طبيعة مواد البناء المستعملة في إنشائه، والمتكونة من مواد بسيطة محلية كالطين وجذوع النخيل...الخ أساسا في البناء أو في عمليات الترميم التي كان الأهالي يقوم بها الأهالي بين الفينة والأخرى، ساهمت هذه المواد قليلة المقاومة للظروف الطبيعية في اندثار المعالم الأثرية بجميع أنواعها. ضف إلى ذلك وجود المسجد وكذا بلدة سيدي عقبة في منطقة تلاقي الأودية، والتي عادة ما تكون مدمرة مثل الوادي الأبيض.

☒ أن المسجد من نوع المساجد المتعددة المهام، فهو مسجد جامع لأداء الصلاة بالإضافة إلي كونه مزارا، وأخيرا مدرسة تعليمية حيث كان يضم العديد من الغرف للطلبة الوافدين من مختلف النواحي المجاورة للبلدة، بالإضافة للدور الاجتماعي وحتى السياسي، حيث كان يعتبر مكان للربط والحل في الكثير من مشاكل البلدة (الزواج، الطلاق، فض

النزاعات بين سكان البلدة، تسيير شؤون البلدة سياسيا، كمكان لعقد الاجتماعات بين شيخ البلدة وأعيانها...الخ.

☒ الزخرفة التي احتواها المسجد زخرفة بسيطة تدل على بساطة سكان المنطقة ومعماريها.

☒ عمليات الترميم الأخيرة التي أجريت في بلدية سيدي عقبة على المسجد، لم تكن وفق طرق علمية مدروسة، فإنجاز المركب الإسلامي ملاصقا للمسجد جعل هذا الأخير شبه مختفي عن الأنظار وأصبح جزء لا يتجزأ من المركب الإسلامي، كما أن الطراز المعماري الذي يعد بحق تحفة هندسية معمارية وهي الحي المجاور لمسجد عقبة بن نافع والمعروف "بالبلدة" شرع في تهديمه بغرض بناء مرافق أخري حديثة شوه من جمالية المكان الأثرية.

يمكن القول انه ورغم بساطة مسجد سيدي عقبة من الناحية المعمارية والهندسية إلا انه مازال يؤثر على عمارة الزاب إلى حد الآن ولا أدل على ذلك مئذنة المركب الإسلامي الجديد الذي أنشأ بالقرب منه والتي أنجزت تحت تأثير مئذنة مسجد عقبة بن نافع.

2.معالم خنقة سيدي ناجي:

- الموقع الجغرافي و إشكالية التسمية: تقع بلدية خنقة سيدي ناجي في منطقة الزاب الشرقي أقصي شرق بسكرة، وهي تتوضع في أقدام سلسلة الاوراس بالضبط في أقدام جبال النمامشة، وتبعد عن مقر الولاية "بسكرة" بحوالي 100 كلم، وترتبط بها بواسطة الطريق الوطني رقم83 ويعد المحور الرئيسي في هيكلة مجال البلدية وفي الحركة والاتصال، وبمسافة 25كلم عن مقر الدائرة زريبة الوادي شرقا.
- **اسم الخنقة:** جاء في القاموس المحيط[15]، أن الخانق الشعب الضيق والزقاق المختنق: المضيق ومختنق الشعب مضيقه والخانق مضيق في الوادي والخانق شعب ضيق في الجبل، وأهل اليمن يسمون الزقاق خانقا[16]، كماأن اسم الخوانق ارتبط بالزوايا في المشرق، حيث يذكر ابن بطوطة[17]، وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقه".وبما أن هذا المصطلح غير شائع في بلاد المغرب، رغم أن بلدة جغرافية تعني الفج والمضيق بين جبلين، وكثيرا ما يضاف إلي اسم آخر، فيقال خنقة كذا وكذا، ومن ثمة أضيفت الخنقة إلي الجد الأول للأسرة سيدي ناجي.

1- مسجد سيدي المبارك:

أ- ظرفية التأسيس:

يعد "مسجد سيدي المبارك" المعروف كذلك، "بالجامع الكبير" و "جامع الجمعة" من أهم المراكز العلمية بالمنطقة، يعود تأسيسه – كما سلف الذكر– إلى سنة 1147هـ /1734م، ذلك ما تدل عليه كتابة موجودة على يسار المحراب تذكر بأن " محمد بن محمد الطيب "هو الذي بني المسجد في أواسط صفر من سنة 1147هـ. وهي كتابة تأسيسية تخلد ذكرى بناء المسجد، نفذت بخط مغربي بأسلوب الحفر البارز، يتميز هذا الخط كغيره من كتابات هذا المسجد، بعدم الإتقان والجودة ورسم بعض الكلمات وفق الرسم القرآني، وهو ما نلمسه في كلمة الفقرا بدون همزة. فقد تضمنت الكتابة اسم باني هذا المسجد، وهو الشيخ محمد بن محمد بن الطيب بن احمد بن المبارك في التاريخ المذكور وهو سنة 1147من الهجرة النبوية.

لا نعلم على وجه التحديد، فيما إذا كانت عملية البناء هذه مجرد عملية تجديد وتوسعة للمسجد الذي بناه جده، أم هي إعادة بنائه كلية من طرف هذا الحفيد الشيخ محمد بن محمد الطيب، إلا أننا نرجح أن هذا التاريخ يدل على إعادة بناء للمسجد وتوسعة الذي كان قائما، والذي كان في الأساس زاوية أسسها الشيخ سيدي المبارك لتعليم العلوم النقلية والعقلية، وتلقين الطريقة الناصرية الشاذلية، والتي أصبحت وجهة لطلاب العلم والتصوف من كل مكان ودفن بجوارها حيث ضريحه الآن في الركن الغربي الشمالي للمسجد الحالي سنة 1031 هـ /1622م، وأصبحت شيئا فشيئا تحمل اسم مسجد سيدي المبارك.

ب– الوصف العـام للمسجـد:

يأخذ جامع سيدي المبارك بن ناجي شكلا مستطيلا، 26×13م يتكون من بيت الصلاة، والمدرسة الناصرية الملاصقة لبيت الصلاة من الناحية الشمالية، وكذا الميضأة(المطهرة)، ومن الناحية الغربية ضريح سيدي المبارك وتحديدا الركن الشمالي الغربي منه، أما الركن الجنوبي الغربي، فيوجد ضريح الشيخ بن حسين محمد، إضافة لذلك صحن ملحق بالمسجد غير مغطى يستعمل للصلاة في فصل الصيف مبلط بالآجر الأحمر. تأخذ بيت الصلاة في جامع سيدي المبارك شكلا غير منتظم، طول ضلعها17,50م، أما العرض فيبلغ 13,60م وبذلك يبلغ جوفه 210,80م، على غرار مسجد سيدي عقبة، ومسجد سوس بتونس والقرويين بفاس[18]، والمسجد البرانى للقصبةبمدينة الجزائر.[19]

تحتوي بيت الصلاة، على خمس أساكيب موازية لجدار القبلة وسبع بلاطات عمودية على جدار القبلة(المحراب)، ويبلغ عرض البلاطة الواحدة2,30م، أي تقريبا المسافة الموجودة في

بلاطات مسجد عقبة بن نافع، ولكنها تختلف من حيث الطول. فبلاطة المحراب والثلاثة التي على يمينها يعادل طولها عمق بيت الصلاة، أما البلاطات الثلاث التي على يمين المحراب فطولها11,20م. ويرجع هذا الاختلاف في المقاسات إلي وجود الضريح"أحمد بن ناصر" في الركن الشمالي الغربي لبيت الصلاة.

أما الاساكيب، فهي تختلف من حيث المقاسات، إذ يبلغ عرض أسكوب المحراب2,30م، أما طولها فيعادل طول ضلع بيت الصلاة. والأسكوب الأخير عرضه 2,30م، أما طوله فيبلغ 15م. وتنحصر جميع الأساكيب بين خمس صفوف من الأعمدة يحمل كل صف منها بائكة من العقود، أما الجدران فيبلغ سمكها 60سم، وهي تقريبا سمك جدران مسجد سيدي عقبة. يحتوي مسجد سيدي المبارك على صحن يقع في الجهة الغربية من المسجد وهو أيضا غير منتظم الشكل طول ضلعه على يمين المحراب 7,15م أما على يساره فيبلغ طوله 9,70م أما طول ضلع الصحن على جدار القبلة"المحراب" فيبلغ 7,10م به رواق عرضه 1,20م محمول على دعامات(أعمدة) يبلغ عددها عشرة دعامة مصنوعة من الحجارة ومبلط بالآجر الأحمر جلب من تونس أيام أحمد باشا. يتميز مسجد سيدي المبارك بميزة منفردة عن بقية مساجد الجزائر، وهي تعدد الأضرحة فيه، والتي تعد كمزارات تضم شيوخ الزاوية الذين هم في نفس الوقت شيوخ الخنقة البارزين، والذين أرتقوا إلى مصاف الأولياء الصالحين. ونجد ما يشابه ذلك في العمارة السلجوقية أين يتم إلحاق المدرسة بالمدفن، وهي قاعدة العمارة السلجوقية(470هـ /708هـ)الموافق لـ (1077م /1308م).[20]

ويورد صالح لمعي[21]، في هذا المجال وعلى سبيل المثال تربة درويش باشا والي دمشق)982هـ الموافق لـ 1574م، وهي تقع ضمن مجموعة معمارية تتألف من جامع ومدفن ومكتبة(كتاب)، والقبة لها طنبور من طابقين.

الملاحظات التي يمكن أن نخرج بها من خلال دراستنا لمعالم الخنقة ما يلي:

1. المنطقة لم تكن مهجورة من قبل، فبقايا القرية البربرية تدل على تواجد بشري سابق في المنطقة.

2. الواحة كانت ممر رئيسيا للقوافل المتنقلة من الصحراء نحو الشمال، أو من الجزائر وحتى المغرب الأقصى إلى الحجاز في مواسم الحج.

3. مساحة الواحة ضيقة، عكس مدينة بادس المجاورة التي لا تبعد عنها إلا بمسافة قليلة والتي توجد في منبسط، وهذا ما جعلها عامل طرد للسكان في العهد الروماني والبيزنطي.

ضف إلى ذلك وجودها في منخفض، وهو عبارة عن طمي وأتربة ترسبت من وادي العرب، وبذلك لا تستوعب العدد الكبير من السكان.

4. الواحة كانت عرضة لفيضانات وادي العرب المجاور لها من حين إلى آخر، هذا كان عامل طرد للسكان.

5.موقعها المحصن جعلها ملجأ للفارين والملاحقين سواء من الأفراد أو القبائل على مر الحقبات التاريخية، خاصة وأن المنطقة جغرافيا شهدت صراعات كبيرة.

6. إشكالية النسب، وهي إشكالية كانت دائما مثار الاختلاف والتضارب، خاصة وان تأسيس الخنقة جاء في وقت انهيار أخر الإمارات الإسلامية في المغرب العربي. حيث أصبح النسب الشريفي مطلب الجميع. وهذا ما جعلنا نجد نسبين لأسرة سيدي المبارك: الأول ينتهي إلي عثمان بن عفان رضي الله عنه، والثاني إلى الادارسة ومنه إلي الرسول صلي الله عليه وسلم.

7.ارتباط تأسيس خنقة سيدي ناجي بالرؤية التي رآها في المنام مؤسس البلدة عن جده الأول "سيدي ناجي"، وهذه ميزة نجدها في تأسيس أغلب القرى والبلدات وهو قيام التأسيس على أساس الرؤية والأسطورة.

8. أن من رمم مسجد سيدي المبارك وهو عمر التونسي هو نفسه من رمم مسجد سيدي عقبة والدليل على ذلك هو وجود نفس اسم المرمم في المسجدين

9. المسجد كان في بدايته عبارة عن زاوية ليتحول مع مرور الزمن إلي جامع ومدرسة.

10. الملاحظ أيضا، هو توفر شروط العمارة الإسلامية في تأسيس الخنقة، من إحاطتها بصور بغرض الحماية، و تموضعها بين جبل ووادي، وهذا ما تكلم عنه ابن خلدون، وابن الأزرق، وابن الربيع.

11. دقة وتنظيم البلدة من حيث تقسيم سكانها قبليا على أحياء وحارات وهو ما يشبه المدن الأولى التي أسسها المسلمين كالكوفة والبصرة والقيروان والفسطاط ولهذا عرفت البلدة ذات الخمس مساجد وخمس حارات وخمس سواقي وخمس أبواب وخمس عيون.

12. ظاهرة تعدد الأضرحة بالمسجد وهي ظاهرة نادرة قاما نجدها في مساجد الجزائر.

14.الزخرفة التي تزين المسجد وهي زخرفة ذات نمط متطور عما وجدناه في مساجد. الزاب الأخرى،زخارف نباتية، هندسية، فلكية غاية في الإتقان.

15.المقبرة الملحقة بالمسجد الخاصة بأسرة بن حسين والتي تضم شيوخ وأبناء الأسرة ملحقة بالمسجد منفصلة عن مقبرة العامة من سكان الخنقة.

16.طريقة بناء القبور والشواهد وهي دلالة عن التأثير العثماني في المنطقة كما تبين الحظوة والمكانة التي كانت لأسرة بن حسين.

17.المدرسة الناصرية والتي تعد نموذجا فريدا من نوعها في الزاب من حيث التصميم والبناء والوظيفة عكس مسجد سيدي عقبة.

18.الصحن الملحق بالمسجد والذي يتميز بالإتقان والزخرفة والاتساع.

19.استعمال الحجارة في صناعة الأعمدة (السواري) والتيجان بإتقان عال عكس مسجد سيدي عقبة الذي استعملت فيه أعمدة وتيجان جلبت من خرائب تهودة الرومانية وكذا استعمال جذوع النخيل.

20.الاستعانة باليد الفنية الخارجية والتي جلبت من تونس تحديدا.

21.التحكم في تقنيات الري حيث استغل شيوخها ما وجدوه من قنوات رومانية قديمة في المنطقة وأضافوا لها قنوات جديدة لاستصلاح أراضي الخنقة.

2- السرايا أو (منزل أسرة بن حسين): تعد السرايا معلما تاريخيا وأثريا بارزا في خنقة سيدي ناجي، لما تتميز به من مكانة وهندسة معمارية وزخرفة. إلا أن هذا المنزل زالت أغلب معالمه نتيجة عدم مقاومته للظروف الطبيعية، كالأمطار والفيضانات التي كانت تضرب المنطقة بين الفينة والأخرى، ونتيجة لهجرة ساكنيه وعدم الاهتمام به إلا في السنوات الأخيرة أين أجريت عليه ترميمات وإصلاحات تمت دون دراسة علمية مدروسة. كما انه لم يتم بنائه مرة واحدة، بل كان يخضع إلى إضافات بين الفينة والأخرى حسب حاجة العائلة وعدد الأفراد.

قام بتأسيس المنزل، محمد بن محمد الطيب في 1732م[22]، وأكمل بنائه أحمد بناصر أثناء عمليات الزيادة التي أضافها علي مسجد سيدي المبارك(المدرسة، والدمس، والقبة وكذا بناء القلعة) في سنة1171هـ الموافق لـ 1758م. حيث أنفق من ماله الخاص حوالي ثمانية آلاف سلطاني ذهبي، هذه الإضافات والزيادات تدل على الرخاء المادي الذي كانت تعيشه بلدة الخنقة، ويعد هذا المسكن من المساكن المتعددة الوظائف، فبالإضافة إلي كونه مسكن العائلة فهو أيضا مقر للحكم وإدارة شؤون الخنقة، خاصة وأن البلدة كان لها الحظوة الكبيرة في العهد العثماني كما سبق ذكره في المدخل التاريخي، حيث كانت تسمي "دار إمارة

الاوراس والزاب الشرقي" في جمع العشور والزكاة، ضف إلي ذلك أنها كانت مقصد سواء من قسنطينة أو تونس كزائرين أو هاربين للاحتماء وطلب الدعم.ولهذا كان التفكير في بناء مسكن يليق بأسرة بناصر.

• الوصف العام للسرايا(المنزل):

تمتاز السرايا (أو منزل عائلة بن حسين) بطابع التربيع والتكعيب تقريبا مثل تصميمات قصور مدينة الجزائر، التي تعود للفترة العثمانية شأنها شأن التصميمات التي تمتاز بها العمارة الإسلامية المعروفة في العالم الإسلامي[23]، حيث يبلغ طول ضلعها16م، أما العرض 12م. وبذلك لا تختلف عن نمط القصور العثمانية بمدينة الجزائر العاصمة، مثل قصر عزيزة (25م ×20م)، وقصر حسين باشا.[24]

لم يخرج منزل عائلة بن حسين عن هذا النمط المعماري، فهو يحتوي على طابق أرضي يشتمل علي المرافق الصحية والمعيشية، وكذلك علي غرف خاصة للضيوف بينما الطابق العلوي يحتوي على غرف للنوم[25]، ونجد شبيهها في تخطيط القصور الأموية الأولي في بادية الشام وقد تم علي أساس الفناء المركزي المكشوف الذي تدور حوله وحدات المسكن الكبير[26]، وما يسترعي الانتباه في السرايا أن واجهتها تقع في زقاق ضيق بعيد عن مواجهة الشوارع الكبرى والعامة المتميزة بكثرة الحركة النشطة كما أنها تقع في غير مواجهة مراكز الجذب العامة كالأسواق والمرافق العامة. يمكن تقسيم المنزل إلى عدة طوابق، والملاحظ أنه يمثل بحق ناطحة السحاب في منطقة صحراوية تتميز ببساطة مساكنها. نظرا لارتفاعه الملحوظ مقارنة بباقي منازل الخنقة خصوصا، والنمط العمراني المعروف في منطقة الزاب عموما، حيث يبلغ ارتفاعه ارتفاع مئذنة مسجد سيدي لمبارك الملاصقة له.

من خلال دراستنا النظرية والوصفية، وكذا التحليلية لأهم المعالم الأثرية الإسلامية لخنقة سيدي ناجي، والمتمثلة في مسجد سيدي المبارك وكذا السرايا. يمكن الخروج بعدة ملاحظات واستنتاجات أبرزها:

1. تأسيس خنقة سيدي ناجي جاء كحتمية دفاعية بدرجة أساسية بعد فرار سيدي المبارك من مطاردة الشابية له في الصحراء.

2. ارتباط تأسيسها بالرؤية التي رآها في المنام مؤسس البلدة عن جده الأول "سيدي ناجي"، وهذه ميزة نجدها في تأسيس أغلب القرى والبلدات وهو قيام التأسيس على أساس الرؤية والأسطورة.

3. إشكالية النسب، وهي إشكالية كانت دائما مثار الاختلاف والتضارب، خاصة وان تأسيس الخنقة جاء في وقت انهيار أخر الإمارات الإسلامية في المغرب العربي. حيث أصبح النسب الشريفي مطلب الجميع. وهذا ما جعلنا نجد نسبين لأسرة سيدي المبارك الأول ينتهي إلي عثمان بن عفان، والثاني إلى الادارسة ومنه إلي الرسول صلي الله عليه وسلم.

4. أن خنقة سيدي ناجي اكتسبت مكانة مرموقة علميا واقتصاديا في مدة وجيزة في منطقة الزاب الشرقي رغم وجود قرى لها أسبقية الظهور في المنطقة كسيدي عقبة، ليانة و بادس التي كانت مركزا عمرانيا كبير منذ العهد الروماني، ورغم ذلك لم تحقق ما حققته خنقة سيدي ناجي

فهل هذا يعود فقط للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها مؤسس الخنقة والزاوية وهو سيدي المبارك؟

5.أم أن هذه الأسرة جلبت معها موارد مالية كبيرة أثناء تنقلها من تونس، وهذا ما جعلها تصبح مركز استقطاب للاستقرار السكاني والازدهار الاقتصادي (للحرفيين والتجار).

6.أن المنطقة ورغم بعدها عن مقر الحكم العثماني إلا أنها لم تكن بعيدة عن مجريات الأحداث السياسية والثقافية المكانة التي حظيت بها في العهد العثماني من لدن الحكام العثمانيين دون المناطق الأخرى، والذي تجلي في حصول شيوخها على حق جباية الزكاة والعشر في الزاب الشرقي وجبل ششار، وهي حظوة لا يمكن الحصول عليها مجانا خاصة وان العثمانيين كانوا لا يعطونها لأي كان.

7.موقع خنقة سيدي ناجي، وهو طريق القوافل بين الصحراء والتل بالنسبة للقبائل الرحل في رحلة المصيف، وكذا طريق الحج الذي كان يمر بها، والذي كان ينطلق من المغرب الأقصى وموريتانيا، وهذا ما شجع حركة التجارة والتبادل التجاري في المنطقة

8.العلاقات الطيبة مع دايات تونس حيث كانت ملاذا للبعض منهم أثناء صراعهم على السلطة واستضافتهم، وهذا ما يسمي في لغة اليوم الدبلوماسية "باللجوء السياسي"، هذه المكانة جعلتهم حلقة وصل بين الايالتين التونسية والجزائرية عند حدوث الأزمات.

9.إلا انه من جهة أخرى، كانت هذه المكانة مثار شكوك بايات قسنطينة وعدم الثقة في شيوخ الخنقة، وبذلك كانت خنقة سيدي ناجي منطقة تجاذب بين الايالتين.

10.الروابط الثقافية وحتى الأسرية بين أسرة سيدي ناجي والأصالة التونسية، جعلت المنطقة تتأثر بالنمط العمراني والثقافي التونسي، فقد استفادت الخنقة من دون شك ببعض المظاهر الثقافية والفنية من تونس نظرا للتقارب الكبير الذي كان بينهما. فقد استعان شيوخها في تزيين مسجد سيدي المبارك بصناع تونسيين ماهرين أمثال: أحمد بن عمر التونسي الذي نقش المحراب والاصطا حسين الذي نقش القبة وعلي بن محمد التونسي وعمر الصفا قسي ...إلخ، وقد وجدت خطوطهم على مسجد ومدرسة الخنقة، فنقش مثلا على الباب الغربي للمسجد ما يلي: "ركب هذا الباب يوم الأحد الثامن من شهر الله المعظم شوال سنة 46 ومائة وألف علي يد صانعه أصطا أحمد بن عمر الشريف الجبايلي النقاش وباني هذا المسجد الحاج محمد السعد بن عمر الصفا قسي رحمه الله

11.الزخرفة العثمانية البارزة في معالم الخنقة في المسجد والسرايا، والتي تدل بشكل لا يدعوا للشك أن المنطقة كانت تعيش في رخاء اقتصادي ومالي كبيرين.

12.ظاهرة استعمال العقود النصف دائرية، والتي نجدها في اغلب المنازل في خنقة سيدي ناجي إلي يومنا هذا، وهذا يدل أن المعماري في المنطقة أصبح يتحكم في تقنيات البناء بدرجة كبيرة. حيث أصبح يكيف عمران البلدة حسب متطلبات البناء والظروف الزمنية التي تعيشها.

13.ظاهرة استعمال العقود البرميلية على شكل العقود الرومانية والتي استعملت في المدرسة الناصرية والسرايا

14.عمليات الترميم العشوائية التي تمت عليها دون دراسة علمية، شوهت هذا المعلم التراثي وأفقدته زخرفته وهندسته التي تعود إلى حوالي أربعة قرون خلت

15.يمكن القول في الأخير، أن مكانة شيوخ خنقة سيدي ناجي الدينية والعلمية جعلت تأثيرهم ينتشر بسرعة في ناحية الزاب الشرقي، وكذا حنكتهم السياسية منذ تولي أحمد بن ناصر المشيخة في البلدة جعلتهم يحتلون هذه المكانة مع مرور الزمن. إلا أن البلدة فقدت هذه المكانة في الوقت الراهن، بعدما أهملت وتعرضت للموت البطيئي بعد هجرة سكانها، وبذلك تعرضت السرايا للسقوط.

الخاتمـــــــــــة:

لقد تبين لنا من الدراسة الميدانية المتعلقة بالمعالم الأثرية الموجودة في منطقة الزاب الشرقي، استخلاص بعض خصوصيات العمارة الإسلامية المحلية بالمغرب الأوسط في القرون

الأولي للفتح الإسلامي والعهد العثماني:

1.أنها عمارة محلية في طابعها ونسقها العمراني في بدايتها الأولى، إلا أنها تأثرت فيما بعد بالمؤثرات الخارجية الآتية من منطقة الأناضول وبالتحديد تركيا بسبب الوجود العثماني بالجزائر، وهذا ما نلاحظه في عمارة خنقة سيدي ناجي وبالتحديد في السرايا.

2.عمارة الزاب الشرقي، اعتمدت في بدايتها على المواد المحلية الصنع في عملية البناء والزخرفة، مثل جذوع النخيل واللبن والجص، ومع مرور الزمن تطورت أساليب البناء وتقنياته، حيث استعمل البناء تقنيات مختلفة عن التقنيات المستعملة محليا ومزجها بتقنيات خارجية، مستعينا بخبرات خارجية من المناطق المجاورة للجزائر، كتونس مستغلا الروابط التاريخية بين هذه الأخيرة وتونس، كذلك استعان بالمواد التي كانت تجلب للجزائر في العهد العثماني من دول أخري.

3.أن المعماري لم يهتم بالجانب الجمالي بشكل كبير، بقدر اهتمامه واحترامه لأسس البناء وقواعده، وهذا ما وجد في مسجد سيدي عقبة. أما في معالم خنقة سيدي ناجي فنجده قد بدا يطور مهاراته وتقنياته، وبدأ يعطي الناحية الجمالية حقها من حيث استعمال الآجر والمزج بين عدة مواد وتقنيات في المبني الواحد، دون الإخلال بالنسق العام للمبني، ضف إلي ذلك اهتمامه بالعنصر الزخرفي في المبني لإضفاء الناحية الجمالية عليه، حيث لم يكتفي بالزخرفة البسيطة على الجص بل تعداه إلي الزخرفة على الحجر ومواد أخرى، كذا تنويع مواضيع الزخرفة، سواء النباتية أو الهندسية وحتى الرموز الفلكية، كالنجوم والأهلة تحت تأثير العمارة العثمانية.

4.أما فيما يتعلق بعمر البناء وسلامته، فقد لجأ معماريو المنطقة إلى استعمال الأسس التي كان البناء يعطيها الأهمية البالغة، بحيث راعي تضاريس المنطقة وتطبيق النوع اللائق بها.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة أن عمارة الزاب عموما والزاب الشرقي خصوصا حملت الصفات العامة للعمارة الإسلامية واثرت على المناطق المجاورة بشكل كبير مازالت ملامحه جالية لحد الآن.

الهوامـــــش:

[1]ابن عذارى: ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج س كولان و إليفي بروفنسال ج1،دار الثقافة بيروت، لبنان،ط2،1980، ص19.

أنظر أيضا: ابن حجر العسقلاني: ص 80. و الأسيدي الدباغ: معالم الإيمان، ص44.

[2]فكري احمد: **مساجد القاهرة ومدارسها**، ج1، العصر الفاطمي، دار المعارف، مصر، 1965، ص126.

[3]سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون:**دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية**،ط2، ذات السلاسل، الكويت، 1986، ص456.

[4]المرجع نفسه:ص471.

[5]Dokali(R), **les mosquées de la périodeTurque d'Alger** S.N.E.D planche2et9, Alger 1974, p88

[6]شافعي فريد: **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، مجلد1،(عصر الولاة)، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، مصر، 1970، ص65.

[7]كارل بروكلمان:**تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،ط7، 1977، ص 127.

[8]المرجع نفسه، ص140.

[9]عثر عليها الباحث والمؤرخ زهير الزاهري في قرية قرطة القريبة من مسجد سيدي عقبة في ثمانينات القرن الماضي وقام بوضعها في مسجد سيدي عقبة

[10].70pMarçais. George : **l'architecture musulmane d'occident**,

[11]شهبي عبد العزيز: **مساجد الزاب ووادي ريغ دراسة أثرية معمارية**، رسالة دكتوراه درجة ثالثة، جامعة الجزائر، 1984، ص20.

[12]حسين مؤنس:تاريخ المغرب وحضارته،حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته**، (من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن6 إلى القرن 19م)، المجلد1، ج1، مطبعة العصر الحديث، بيروت لبنان، ط 1، ص60.

[13]Bouruiba Rachid : **apport de l'Algérie a l'architecture religieuse arabo-islamique**, O.P.U, Alger, 1986, PP 64-65.

[14]Dokali (R): op.cit, p 2

[15]الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص1138.

[16]لسان العرب: باب الخاء، المجلد الثاني، ص325.

انظر أيضا: المصدر نفسه، المجلد3، ص190،مصطلح "الزقاق"، والتي تعني السكة يذكر ويؤنث، والزقاق الطريق الضيق دون السكة، وأيضا طريق نافذ وغير نافذ.

[17]ابن بطوطة: الرحلة المسماة(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1980، ص37.

[18]شافعي فريد: شافعي فريد: **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، مجلد1،(عصر الولاة)، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، مصر، 1970، ص65.

[19]Bouruiba(r) **: apport de l'Algérie a l'architecture religieuse arabo- islamique**, O.P.U, Alger, 1986 pp64-65. .

[20]صالح لمعي:القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ص31.

[21]المرجع نفسه: ص29.

[22]G .Mercier:**mélange d'histoire et d'archéologie**, p157.

[23]محمد الطيب عقاب: **قصور مدينة الجزائر**" أواخر العهد العثماني"دار الحكمة، الجزائر 1999، ص51.

[24]محمد الطيب عقاب:المرجع السابق، ص51.

[25]صالح لمعي: عمارات الحضارات القديمة، ص53.

[26]وجدان علي بن نايف: **سلسلة التعريف بالفن الإسلامي**"الأمويين، العباسيين، الأندلسيين" دار البشير للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص456.